الفصل الأول

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾

[آل عمران: ١٨٧]

نحن خلق من بين مخلوقات الخالق، لسنا الأوائل، ولن نكون الأواخر ممن يتطرقون إلى هذه القضايا الوجودية، ندرك جيدًا أن الكتابة في هذا الأمر الحساس عرفًا، والطبيعي عقلًا، والمطلوب بيانه شرعًا، هو ميدان فسيح وحق مشاع قديمًا وحديثًا بين البشر قاطبة، ويتطلب مجهودًا استثنائيًّا ووقتًا كافيًا، كتابة تلاقي ما في الصدور من تعطشٍ للمعرفة وتلمسٍ للحقيقة، إنها ليست محاضرة مرتجلة، ولا خطبة عابرة، ولا حتى كتابًا تقليديًّا ترتب أورقه، ثم تنمق، وتغلف ليركن في زاوية نائية في إحدى المكتبات، بل هو تدوين للغوص الممكن في أعماق أسرار هذا الوجود للوصول إلى الحقيقة الممكن إدراكها بشريًّا، ومن ثم إعلان التسليم والاستسلام لما لم، ولن، ولا يمكن إدراكه بشريًّا، من الحق المبين، إلا بالوحي الذي يخبرنا عن أشياء، فتصبح شهادة، ويسكت عن أخرى، فتبقى غيبًا.

إن التوقف المحمود عن التفكير في هذا الأمر هو الذي يكون عند الحد الفاصل بين الممكن وغير الممكن إدراكه بشريًّا، وهذا أمر يفرض نفسه عند كل ذي لب، سرًّا أو علانيةً؛ لأننا أمام أمر جلل، نحتاج معه إلى شجاعة فريدة وثقة بالنفس دون خوف من الخوض فيه، الخوف الذي يولد في العقل الباطني توجسًا سلبيًّا، وكأننا أمام إيمان هش، لا يصمد أمام المستجدات والبراهين، أو أمر مستور لضعفه نخشى انكشافه، ونحزن لذلك، كلا ثم كلا، وربنا يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فواجبنا بيان هذا الحق المبين؛ كي نلامس حقيقة حديث النفس الصريح المباشر مع الذات، فنقدم لها طوق النجاة، بعيدًا عن تكرار الإحالة إلى بعض تلك المصنفات (التقليدية) التي ربما لا تروي العطش المطلوب في هذا الموضوع الحيوي المهم.

وجوب البيان وتحريم الكتمان المنصوص عليه في القرآن والسنة يفرض على القادرين نوعًا من الجرأة الملامسة لأوتار العقول الباطنية؛ وذلك بمكاشفة صريحة جدًّا في قضايا الوجود والغيبيات بقدر المستطاع، لقد كان البيان ضرورة ملحة في الأوضاع الطبيعية الماضية، وفي هذه المرحلة تحديدًا أصبح أكثر ضرورة وإلحاحًا، ضرورة تسمح لنا أن نقتحم بعض المحرمات العرفية بكل جرأة؛ لأنها في الأصل مباحات شرعية؛ وذلك بهدف المقاربة أكثر فأكثر من مصارحة النفس مع ذاتها بصدق وأمانة فيما نوقن به تمام اليقين بأنه الحق المبين الذي يبحث عنه كل ذي لب، كيف لا، والحق ضالة المؤمن، وهو أحق به أنّى وجده.

هذا الكتاب لم (يأتِ بما لم يأتِ به الأوائل)، بل المقطوع به يقينًا أنه لم ولن يكون الأول ولا الآخر الذي يتناول هذا الشأن الكوني المثير للجدل (قضية الوجود) في مرحلة من مراحل الإنسانية عبر التاريخ، لكنه محاولة جادة من نوع خاص لمصارحة النفس من داخلها بشجاعة نسبية، نقتحم بها وبالحق المبين بعض قلاع الغموض المحصنة سابقًا، بعد أن أوشك (الملحدون) والمشككون على مداهمتها بالباطل بسراب من الأوهام الواهية التي لا تصمد أمام قوة الحق المبين، لن نصمد في وجه جولة الباطل فحسب، بل سنقذف بالحق على الباطل، فيدمغه، فإذا هو زاهق بحول الله، مستشهدين بتجارب السابقين ومآلاتها.

إنه لا خيار لنا في هذه المرحلة الانفتاحية إلا تحرير هذه المسألة تحريرًا شافيًا كافيًا بالبيان الصريح المدوي دون أي تردد أو وجل؛ لأن هذا أمر يفرضه واقع فكري مضطرب، يوجب على كل قادر الصدع بالحق وإعلان الحقيقة وسد الثغرات التي قد يتسلل منها الشيطان وأعوانه على قلوب مؤمنة مشفقة تتقطع ألمًا وحسرة من القلق على إيمانها الثمين، كان لزامًا على مثل هذا الخطاب أن يظهر للعلانية خاصة ونحن نعيش هذه التقلبات العالمية والأصوات المرتفعة هنا وهناك، وخاصة نبرة ظاهرة الإلحاد التي وجدت من بين المخدوعين البسطاء من يروجها، ويضخمها، ويتوقع أن وراءها شيئًا يستحق الوقوف عنده، نرى أنه من الضروري كشف زيف هذه (الفزّاعات المروّعة)، بالمصارحة الصادقة مع النفس وتفعيل السجال الأمين مع الوجدان الهائم على وجهه

أحيانًا في تيه الفكر والتفكير والحيرة حول عالم الوجود والفناء والبداية والنهاية، بعد أن أصبح هذا البيان واجبًا شرعيًّا وضرورة عقلية للإيمان الراسخ الواثق، مستجيبين بكل ثقة لهذا النداء العظيم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

*****

الأوجب في وجوب البيان

إن برهان ثبات صحة الوحي وضرورة التسليم به ابتداء ورسوخه في النفوس رسوخ الجبال الراسيات، نابع من أن الذي أوحى به للنبيين قد تكفل بحفظه، وهو القادر على ذلك، ولا يتم قضاء ولا قدر ولا حادث ولا علة ولا معلول في هذا الوجود إلا بإذنه، وها هي الحقيقة ماثلة أمام العيان: وحي مكتوب محفوظ منذ عشرات القرون يعبد الناس به ربهم، لم يتغير قط، كأنه لم يرتبط بالزمن مطلقًا، تغيرات سياسية واجتماعية وحضارات تولد وتفنى والوحي باقٍ، إن ما يجب التنبيه إليه هو أن تلقي الناس لنصوص هذا الوحي وفهمهم له أصبح ينطلق من معطيات وظروف جديدة تختلف عن تلك الأجواء الفكرية النقية التي كانت إلى حدٍّ ما في العهد العباسي، وإلى حدٍّ أكبر في العهد الأموي فضلًا على عهد الخلفاء الراشدين النقي، ناهيك عن عهد النبوة الطاهر الأنقى، إننا نعيش اليوم مرحلة انفتاح إعلامي وحرية فكر وتواصل عالمي وتداخل حضارات ومستجدات تقنية غير مسبوقة في تاريخ البشرية، ومع إيماننا بعدم تعارض ذلك مع صريح وصحيح الوحي ونصوصه، فإننا سنحتاج إلى مثل هذه المسامرة الذاتية فكريًّا فيما بيننا؛ كي نعيش ساعاتنا وأيامنا وأعوامنا وأعمارنا كلها ونحن واثقون بما بين أيدينا من وحي وكتاب وإسلام وحياة أخرى، وأنها متكيفة مع كل مستجد دون أي حرج.

لن يقتصر البيان على المشاركة في مواجهة هذا الضجيج المسموع بين الناس حول الوجود والإيمان والكفر والإلحاد فحسب، بل يجب أن يتناول ترجمة ذلك الهمس الخفي

المحتدم بينك وبين نفسك سرًّا، ومن ثم تفسيره على ضوء البيان الواجب، وستلاحظ أنك وغيرك معنيّ بهذا الخطاب على حد سواء، فليست العلاقة محصورة بين واعظ وموعوظ، بل الكل واعظ وموعوظ، وإن كان الخطاب موجهًا لك تخصيصًا وتقديرًا لا اتهامًا وتشكيكًا، بغض النظر عن قوة الإيمان أو ضعفه، ولكنه الخطاب العام الذي يتلقاه الكل، بهدف تثبيت الإيمان وترسيخ اليقين بالرحمن.

يقتضي البيان أن أعتقد أنا وتعتقد أنت أن أهم ما يمكن أن يهمك في هذا الوجود على الإطلاق، هو الإيمان بالله، الأمر الذي أصبح أكثر أهمية من نفسك وحياتك وموتك ومالك وولدك، ويكفي ارتباط عالم الآخرة الباقية به، فإن صلح صلحت آخرتك، وإن فسد فسدت، فما عليك إلا أن تكون واثقًا من نفسك في تحري هذه الحقيقة الكبرى من منابعها لمعرفة بعض أسرار هذا الوجود ومحاولة فهم الموجود في عالم الدنيا التي وجدت نفسك فيها متواضعًا أمام عظمة ما حولك من مخلوقات هائلة، فكيف بعظمة خالقها، ويقتضي البيان أن تكون صادقًا مع ذاتك وعقلك الباطني؛ كي تثق بنفسك، وترضى بإيمانك، وتدع عنك القلق الطارئ، ولتعلم أنه مهما بلغ إيمانك فلن تبلغ درجة إيمان الأنبياء الذين احتاجوا هم بأنفسهم إلى تثبيت وطمأنة ليس من واعظ بشري مجتهد فحسب، بل من رب العالمين الذي خلقهم، واصطفاهم، وأرسل إليهم الملائكة، وأوحى إليهم، وأطلعهم على المعجزات والآيات، ويعلم سرهم ونجواهم وهو علام الغيوب، فما استغنوا عن عنايته ورعايته وصناعتهم على عينه إيمانيًّا، بل لم يترددوا في سؤاله مباشرة عن بعض ما قد يدور في عقلك الباطن هذا اليوم وبالأمس وغدًا!

*****

أمان الإيمان بالخالق

قضية الإيمان والاعتقاد مسألة روحية وحساسة جدًّا، لا بد أن تتشربها النفوس رويدًا رويدًا، بمواصلة التذكير وإرسال الرسل تترى، وهذا يعني أن الفهم الصحيح

لهذه القضية يتطلب تهيئة خاصة واستعدادًا نفسيًّا كاملًا، فنحن أمام هدف في غاية الضرورة الوجودية، ولا يتحقق إجبارًا بالإكراه، ولا بالأوامر العسكرية، ولا بالمؤتمرات ولا القرارات، ولا بالرؤى والأحلام والأماني، ولا بالتلقين السطحي، إنما يتحقق بالاقتناع الحر فقط وفق هذا الاختيار الرباني العادل: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]..

بيان هذا الأمر يحتاج إلى تحييد كل شيء يحول بيننا وبينه، وتفتق العقل وتفرغه تمامًا للإنصات، وقابليته للاستيعاب الهادئ، يحتاج أيضًا إلى صفاء الذهن والاسترخاء التام والواقعية مع النفس، ولكي يبلغك هذا الخطاب بقوة، لا بد أن تتخلص من هموم الدنيا وانشغالاتها بقدر المستطاع، وأن توظف أقصى ما يمكن توظيفه من مسارات عقلك وتركيزك لاستيعاب الموقف الجلل، بعيدًا عن التوتر والتشنج وكل ما يزعج، أو يشوش، أو يشتت الذهن، ستحتاج إلى تركيز خاص وأنت تقف على مشارف الواقعية الفكرية بعيدًا عن المثالية المصطنعة، أو الطهرية المزيفة، أو التنظير المنفصل عن حقيقة ما يدور في الصدور من أفكار وتساؤلات فطرية طبيعية، بهذه الطمأنية سيرتفع صوتك أمام ذاتك في مناقشة علنية شجاعة تعكس تلك المحاورات الذاتية الصامتة، إنها محاورة جادة بصوت مرتفع، ولكن بلطف ورفق حول الحقيقة المسكوت عنها، والمستحى منها، والمتردد فيها مجاملة للمجهول، بينما الواجب الصدع بها وتبيانها شرعًا وعقلًا؛ لإنقاذ الأجيال المتعطشة للنور من تبعات إخفاء الحق والحقيقة عن أعظم قضية تهمك على الإطلاق، إنها قضية معرفة بدء الخلق الأول وعالم الوجود ومآلاته كلها بعد هذه الحياة، وعلى رأس ذلك كله الإيمان بوجود الله، وغير ذلك من أمور الغيب المتفرعة عن هذا الأصل العظيم، الذي هو أعظم الأصول المعرفية على الإطلاق، ألا وهو الإيمان بوجود الخالق ﷻ أولًا، ثم يأتي بعده تباعًا الإيمان بكل شيء معرفي في هذا الوجود من بداية العالم إلى نهايته.

ضرورة بيان هذا الأمر العظيم اقتضت تبسيط اللغة وتيسير الخطاب للفهم، وانتهاج العفوية في البحث، وتكرار التذكير في كل فصل من فصول هذا الكتاب؛ لأن

مسارات الفكر هذه لا بد أن تعرض عليّ وعليك، وكأننا نتجول في حديقة فكرية قديمة وحديثة، فيها أزهار جميلة لا تخلو من بعض الشوك أحيانًا، وفيها ما قد يعجبنا وما لا يعجبنا، لكننا بكل تأكيد لن نكون محايدين في تلقي مادة هذا الكتاب، بل سنجد أنفسنا معنيين بكل ما ورد فيه؛ لأنه مهما كان إيماننا فنحن في حاجة إلى أن نعيش في نهاية المطاف أُنسًا كافيًا من الوحشة الوجودية المطبقة علينا، بل من الوحشات التي ربما لاحقتنا همسًا داخليًّا، أو وسوسة خارجية، أو شبهة تحتاج إلى من يجلّيها.

إننا على يقين بأن حالنا في الدنيا لن تدوم على حال، فلم لا نستعد ليوم الترحال للحياة الباقية، ثم نواجه تقلبات الدنيا بابتسامة الواثقين، ونستمتع بعقولنا، فلا نقلق مما نلاقيه أمامنا، وما رحلتنا هذه إلا نزهة فكرية شفافة هادئة راقية، نريد الاندماج في أجوائها، إننا لا نحمل أي اتهامات مسبقة تجاه بعضنا، بل نحن على الفطرة والبراءة الأصلية على حد سواء، لا نحتاج إلى مصحّة نفسية أو مركز إعادة تأهيل عقلي، وكيف يكون ذلك وأنت إنسان سوي قد خلقك ربك في أحسن تقويم، وأنبتك فكريًّا كي تعلم – تحت أي ظرف – أنك طبيعي الفكر سليم العقل والجسم، متكيف مع بيئتك ومتوازن مع ما تدركه مما حولك، وعندما تدور في نفسك تساؤلات وجودية عابرة فاعلم أنها طبيعية جدًّا، غير مخيفة ولا مقلقة في حقيقتها، وإن رآها بعض المجتهدين غير ذلك جهلًا منهم وتحفظًا، وطرحها الصريح مع من يملك الجواب للنقاش المنضبط خاصة في هذه المرحلة خير من السكوت عنها واحتقانها في الصدور دون جواب شافٍ، ينزع منها خطورة التضخم والتورم الوهمي الذي ربما تسبب في اضطراب إيماني مؤقت سرعان ما يزول بالتذكير المباشر حتى يستقر الأمر في نهاية المطاف على يقين ثابت بفضل الله، وكلنا ذلك البشر.

*****

تساؤلات مشروعة

لقد خلقنا الخالق، وقسم بيننا العقول والأفهام كما قسم بيننا الأرزاق والآجال، وإن من أشد أصناف المصادرة والوصاية أن يفرض إنسان (ذكي) رأيه على أقرانه،

فكيف إذا تسلط شخص متوسط الذكاء بفرض رأيه على من قد يكون أذكى وأفقه وأعلم منه، لمجرد أنه ملك أداة التسلط المادي والحسي والمعنوي، فكبس بها فسحة الرأي والاجتهاد إلى أدنى من مستوى عقول أواسط الناس، فيشعر الأذكياء والمتميزون بأنهم صامتون وكأنهم نزلاء في (السجن الفكري العام)، فتنشأ على إثر ذلك التشققات والانبعاجات والحدة في المواقف الفكرية، إذ يصعب على الأسوياء الحياد أمام تحديات الوجود واستفسارات العقول الحائرة بما تراه حولها، إنه غرور الإنسان المتسلط الذي وجد نفسه عند نفسه (شيئًا)، بعد أن: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ثم كابر وطغى على بني جنسه، وتجاهل أنه من حق البشر جميعًا أن يفعِّلوا عقولهم للوصول إلى أقصى درجات الإيمان المتناغم مع تلك العقول النيرة كي يعلموا علم اليقين أن وراء وجودهم هذا إرادة ومشيئة وقدرة عظمى سابقة ولاحقة لهم، وأي مصادرة أقسى من أن يحال بين العقلاء وبين الوصول إلى هذه الحقيقة.

الخطاب هنا موجه للجميع على حد سواء، أرجوك ألا تحتقر ذاتك، ولا تحطم إرادتك، ولا تنسَ أن مجرد وجودك في هذا الكون يعني أنك كائن سوي تفكر بعقل، وتستشعر ما حولك من موجودات، وإدراكك للوجود يعني أنك موجود، ولن يكون لك وجود ما لم تدرك الموجودات حولك، فأنت إذا (سألت) فلأنك موجود عاقل تسأل أسئلة مبررة ومشروعة من وحي وجودك وبسبب عقلك، سواء نطقت بها أم أسررتها في نفسك، ومن الطبيعي جدًّا ألا يستثنى أحد من أن تمر عليه في أي مرحلة من مراحل عمره تساؤلات روتينية متكررة، مثل: من أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ ومن جاء بي إلى هذا الوجود؟ ومن أين أتيت أصلًا إليه؟ وإلى أين سأذهب بعده؟ ماذا بعد فقدان أمي وأبي؟ ماذا سيحدث لي ولأبنائي وأحفادي من بعدي؟ من أين ابتدأت هذه السلسلة الوجودية وإلى أين ستنتهي؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ ومن وراء هذا كله؟ من سيفنى، ومن سيبقى؟ أين المفر، وأين سيكون المقر؟

تساؤلات لم تولد معي ومعك، ولن تدفن معنا بعد وفاتنا، بل لم تكن لتظهر بدرجة القوة نفسها في جميع مراحل أعمارنا، تذكر جيدًا أننا لم نكن قادرين على طرح هذه التساؤلات في الأيام الأولى بعد ولادتنا يوم أن كنا محتاجين إلى من يلقمنا الثدي

لكي نرضع، ولا نستطيع خدمة أنفسنا في أي شيء، ولو تُركنا ساعات بلا خدمة كلية ممن حولنا لانتهينا من الوجود قطعًا، ولم نتساءل في ضعفنا أيام الطفولة البريئة يوم أن كنا محتاجين إلى كل ما حولنا لكي نقوم على أقدامنا، التي مرت بسلام، فلم نكن نسأل حينها عن شيء مما في أنفسنا الآن؛ لأننا كنا في عناية غيرنا ورعايته، ماديًّا وروحيًّا، ولن نكون بهذا التعطش المعرفي نفسه في ضعفنا الثاني في أثناء مرحلة الشيخوخة، حيث اقتراب اليقين إلينا والانشغال بالمصير ورعب الموت، عندما يقترب الوعد الحق الذي لم يكن في بالنا في أثناء ريعان الشباب مثله الآن، فمع تقدم العمر بدأنا ندرك حاجتنا للإيمان أكثر من قبل؛ كي ننجو مما سيقابلنا بعد الموت من أهوال تقترب منا ولا مهرب منها، ونستغرب مما كنا نطرحه ونحن في شبابنا، حين كان يشتعل لهيب هذه التساؤلات المقلقة أحيانًا في مرحلة من العمر، لا أريد أن أصفها بمرحلة المراهقة وما بعدها، بل سأحددها بسببها وهو مرحلة الانفصال عن الخط التقليدي الذي وجدنا آباءنا يفعلونه، فقلدناهم هكذا بوعي ظاهري لا يتجذر إلى أعماق تفكيرنا، ودخولنا في مرحلة التفكير الذاتي المنفصل عن التقليد لنعتمد على أنفسنا في مواجهة استفسارات الوجود مستقلين عمن حولنا، وهنا تقدح شرارة الاستفهام الطبيعي فطريًّا، المنكر عرفيًّا، فينتج عنها هذه الاهتزازات الفكرية والقلق النسبي لجرأتنا على السؤال، وقلة زادنا المعرفي عن أسرار الوجود، إذا لم نعتصم بالوحي، ونلوذ به.

إن كل ما يمر بك من تساؤلات مباشرة عن أسرار الوجود إنما هي أمور طبيعية جدًّا يستحيل إخفاؤها، ولا ينبغي الشعور معها بالذنب؛ لأنها حالات طبيعية لصاحب العقل الطبيعي، الذي يحاول التعرف إلى أقرب الدوائر المعرفية حوله بتعطش وشرهٍ لا يمكن وصفه، إنه أنت ذلك الإنسان المتسائل تساؤلًا طبيعيًّا، ولا سقف لهذا الأمر إلا عند نقطة العجز المطلق عن الجواب، وهذا العجز بحد ذاته إقرار بهيمنة وقوة من يقدر على ما لا نقدر عليه، لن يقف العاقل عند هذا الحد من التساؤلات، بل سيتجاوز (المحسوسات) إلى تصور (المدركات) العقلية كقضية الوجود، والمعجزات من وحي وأنبياء، وسر هذه الحياة والموت وما بعد الموت، وحقيقة الخير والشر، والشيطان، والجنة والنار، والبعث والنشور، وهكذا سيل متدفق من تساؤلات متزايدة لا تنتهي

تشعر معها أحيانًا بالرعب المكبوت، وخاصة عندما تبتعد قليلًا عن خبر الوحي، فتصبح محاصرًا داخل أسوار الرعب من القادم، وعاجزًا عن الإجابة من تلقاء نفسك، كما عجز عنه من كانوا قبلك، وسيعجز عنه من سيأتون بعدك، وذلك يدفعك بقوة نحو ملاذ الوحي وأمانه وطمأنينته.

ولمعالجة داء الشكوك والأوهام والوساوس لا بد من التخلص من وهم كبرياء الصدود الأجوف الذي لا تفسير له سوى أنه من وسوسة طرف ثالث (الشيطان)، ولا بد من التجرد من حظوظ النفس المتعاظمة، وتطلعاتها الوهمية، على كل واحد منا أن يركز على ذاته، فيتولى شأنها الداخلي بنفسه؛ فهو أعلم بأسرارها من غيره من الخلق، ولأن هذا الأمر يعنيك بالدرجة الأولى فعليك أن تحسم هذا الأمر بنفسك، قبل أن يحسمك الأمر بنفسه، واعترف بقصورك أمام عظمة الوجود، فكيف بعظمة الموجد، واعلم علم اليقين أنه لا إجابة شافية على أي علم غيبي إلا عن طريق الخبر القادم إلينا ممن أوجد هذا الوجود، وخلق هذا الكون كله، ليخبرنا عما لا ندركه، ولا يمكن أن ندركه نحن البشر في حياتنا هذه، وكل من لا يؤمن بوجود خالق الكون، سيواجه معضلة معرفية مستعصية عن كل حل، وسينهار كيانه النفسي أمام صعوبة في فك شفرات الوجود كله، ولن يصل إلى مخرج منها مهما بلغ به العلم الدنيوي، والتاريخ شاهد على جميع الأمم والحضارات السابقة، ستلاحظ أننا وفي كل مراحل هذا الكتاب سنجد أنفسنا أمام انسداد كل أفق بشري معرفي لفهم الوجود إذا ما ابتعدنا عن نور الوحي، يقابله انشراح نفسي وطمأنينة منقطعة النظير عندما نحيل الأمر إلى الوحي، ولا خيار لنا البتة سوى تكرار ذكر هذا المفتاح الأوحد ونقطة البداية ومفك الشفرة لكل سر غامض في الوجود، ألا وهو ضرورة الإيمان بالخالق العظيم؛ لأنه وحده القادر على كل شيء، ومن تلكم النقطة يجب أن تنطلق خارطة التفكير الوجودي كله، إذ من دونها لا فائدة من أي برهان بشري لإثبات أي حقيقة فرعية قبل حسم الأمر مع هذا الأصل العظيم، بل هو النبأ العظيم: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣] وقد وعد الخالق خلقه بأنهم سيعلمونه متى ما شاء، وأراد: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤- ٥].

*****

﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾

لا نتوقف عند أقوال بعض المفسرين في صدر تاريخنا ممن فهموا: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢] بأنه مجرد البعث بعد الموت، أو أنه القرآن الكريم، أو النبوة، أو غير ذلك من الاجتهادات التي لا دليل على حصر التفسير فيها، بل نرقى بالنص العظيم بما يليق بعظمة الوجود كله وصولًا إلى الإيمان بعظمة العظيم الجبار الذي أوجده وكل ما يتفرع عن هذا النبأ، فهل أتاك حديث الوجود المستعصي فهمه على العقول البشرية، الذي يستحق بحق أن يوصف بهذا الوصف المشتمل على كل ما نعلم، وما لا نعلم من العجائب، والذي لو تأملناه لأوحشنا أمره، وجعلنا نجمع أطرافنا حول أجسامنا، ملتحفين بها من لهيب الوحشة وزمهريرها، هاربين من كل شيء يحيط بنا، ضائقين بكل شيء ذرعًا، لولا فسحة الإيمان بالله وآماله.

دعنا نتقترب شيئًا فشيئًا من حقيقة الوجود الذي يظهر طبيعيًّا بريئًا هادئًا لأول وهلة، بينما هو خلاف ذلك تمامًا عند التعمق فيه، ولو لم يكن فيه إلا أنه لا تكون فرحة عابرة إلا وستعقبها ترحة قابرة، لكفى به وحشة ورعبًا، الأمر يحتاج إلى يقظة حقيقية، ولكي تصل إلى شاطئ الأمان عليك أن تخرج فورًا من دائرة النعيم الخادع في الدنيا لتعلم علم اليقين أن كل من تراهم حولك الآن زائلون، كما تزول من هذه الدنيا، فإما أنك ستبكيهم، أو سيبكونك لا محالة، تأمل معي جيدًا، ولا تنخدع بالسرور والفرح العابر، فهو استثناء يسير من أصل مخيف، وحينها ستدرك أنه على الرغم من غموض هذا الوجود إلا أنه من بدهياته أنك موجود فيه، وأنك جزء منه، وأنك في مواجهة الأفراح والأتراح، لا تدرك سعته، ولا تحيط علمًا بأسراره، وأهم من ذلك كله أنك أيها الإنسان، هامشي جدًّا على حافة عظمة هذا الوجود وسعة آفاقه، وستدرك أن إنكار المرء لخالق هذا الوجود مستحيل من ناحية منطقية وعقلية، لولا زيف صدود بعض النفوس وكبريائها المصطنع، إذ لا وجود بلا موجد ابتداءً، فمن يكون هذا الموجد الذي لا موجد له؟

إن جميع المواقف البشرية السابقة والحاضرة والمستقبلية والتجديفات المتقلبة بين الإيمان والكفر والإلحاد لا يمكن أن تحجب حقيقة مطلقة، وهي: أنه قد أجمع الأولون والآخرون، مؤمنون وكافرون، أن وراء هذا الوجود نبأً عظيمًا وخبرًا هائلًا لا يمكن لأحد من البشر مهما أوتي من العلم والمعرفة الفردية والجماعية أن يكشف سره، وحيث إن هذا الوجود مليء بالمكتملات وغير المكتملات فلا بد أن يكون موجد هذا الوجود كاملًا كمالًا مطلقًا، يفوق كل كمال معقول أو غير معقول، وقويًّا قوة مطلقة تفوق كل قوة معروفة أوغير معروفة، وقادرًا قدرة مطلقة تجعل كل هذا الوجود العظيم متفرعًا عن قدرته العظمى، وعجزنا وقصورنا المطلق دون ذلك كله هو الذي يدفع الإنسان السوي ليسأل كما تسأل، ويتساءل كما تتساءل عن سر هذا الوجود ومآلاته؟، ليصل من خلال ذلك كله إلى اليقين الذي يستسلم له، فمن الطبيعي جدًّا أن تسأل لأنك بعقلك قد تميزت عن غيرك من الخلق، وأول امتحان لعقلك السليم هو محاولة معرفة سر وجودك أنت، قبل أن تفهم ما يدور حولك، فكيف بمعرفة عظائم هذا النبأ العظيم: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣].

هناك أربع أدوات استفهامية أساسية تُستفتح بها تساؤلات الإنسان الطبيعي عن أهم أسرار الوجود، وهي: (كيف) و(أين) و(متى) و(مَنْ) أوجد هذا العالم؟ ثم يصعد السؤال شيئًا فشيئًا ليصل إلى السؤال النهائي: (كيف وجد من أوجده؟) ذلك السؤال الذي يشعر الواحد منا معه بأنه على حافة هاوية خطيرة لا جواب عليه مطلقًا في هذا الوجود، ولو تأملت فيما حولك لعرفت وجود الخالق من خلال الخلق، ولكنك لن تعرف عن ذاته شيئًا على الإطلاق، إلا ما أخبرك هو عن نفسه، وما لم يخبرك فلا سبيل إليه مطلقًا في أي زمان أو مكان آخر إلا أن يكون في عالم الآخرة، وهنا فقط وعلى شفير هذه الحافة المعرفية عن الخالق في الدنيا أمرنا الوحي بالتوقف، لا ليحرمنا حقًّا مشروعًا في مواصلة التفكير، بل لينبهنا إلى وصولنا إلى أقصى حد لا يمكن أن نتجاوزه بحال، فالإنسان من دون الوحي عاجز تمامًا عن الإجابة الوافية عما دون ذلك من التساؤلات التي تتوقف عندها سلسلة تتبع العلل والأسباب إلى الأبد، خاصة عندما (ينبعج) عقل المخلوق عاجزًا عن الاستيعاب في أولى درجات سلم التفكير الطويل في الوجود، عند الموجودات المعروفة، فكيف بغير المعروفة؟! بل كيف سيكون حاله إذا وصل إلى

ضرورة (وجود) من لا علة لوجوده؟! ومن الناحية المنطقية يستحيل علينا أن نحيط علمًا بوجود نحن جزء من تكوينه، ويكون الأمر أكثر استحالة لو ادعى أحد أنه سيعلم شيئًا عمن هو أكمل وأكبر وأعظم من الوجود كله.

ومع هذا، فالدين يحترم العقل، ولا يتعارض مع المنطق السليم، فلا يمنعه من طرح مثل هذه التساؤلات الطبيعية ما دامت تطرح بهدف الوصول لليقين والطمأنينة بصدق، ولا ثمة خطورة على عقل أو إيمان لمجرد الإفصاح عنها علانية، وهي الموجودة أصلًا داخل النفوس الصامتة، ومرة أخرى يجب أن نستقبل هذه التساؤلات منا ومن غيرنا بكل رحابة صدر؛ لأنها بدهية عند كل عاقل سوي، ولهذا السبب تكون هذه الاستفهامات أشد حضورًا ووضوحًا عند الأذكياء منا، إنها ببساطة نتيجة حتمية لعقل فعال، فالإنسان وجد نفسه فجأة جزءًا من هذا النظام الكوني العجيب، ولم يشهد حدوث الكون، ولم يحضر حتى ولادته وقدومه للوجود، ولكن العاقل المتبصر المستبصر يؤمن بأن الخالق هو الله القائل بوصف وجودنا وكيفية تعلمنا علمنا عنه، وكل ذلك حقيقة ماثلة أمامنا: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فالمولود يولد خاوي الذهن إلا من أساسيات الفطرة، ثم يكبر وفجأة يفتح عينيه في لحظة، فيرى الأشياء حوله، وينصت ويسمع، ويتحرك ويأكل ويشرب، ويجد نفسه مكونًا حقيقيًّا في جسد مادي ملموس وروح غامضة، يعلم أن أصله ماء مهين، ولكنه لا يدري كيف خلق من ماء مهين، فأصبح بشرًا سويًّا، يرى حوله من العوالم المتحركة، فلا يدري أهو مبتدؤها أم منتهاها؟، فالزمان تدور عجلته، وكأنه غير مكترث بشيء من الوجود، والنور والظلام يتعاقبان، وجيل يموت، وآخر يبقى، وثالث قادم من بني الإنسان وسائر الحيوان، دوامة عجائب لا تنتهي، تشرئب فطرة الإنسان لفك شفرات هذه المعرفة اليقينية عما حوله من الأسرار العظيمة، وتتوق نفسه لكشف السر الأول وراء هذا الوجود وفهم الواقع ليكتشف ما وراء هذا الأمر في الماضي والحاضر؛ كي يستشرف المستقبل المقلق له، هذا هو الدافع الحقيقي وراء تلك التساؤلات الطبيعية الفطرية، وباختصار: إنه يتساءل؛ لأنه إنسان متوازن.

*****

الإنسان والغيبيات

الإنسان يجهل نفسه، ولا يعلم عنها إلا قليلًا، ومن الطبيعي أن يستميت في محاولاته المتكررة كي يتعرف إلى نفسه جيدًا، ويبحث عن أصل كل شيء وعلته، فالأمر عظيم جدًّا بالنسبة إليه، ووجود الإنسان لحظات يسيرة لا تكاد تذكر في عالم الزمان، يحاول خلالها فهم الوجود، فيدركه الموت قبل أن يصل إلى شيء، فيترك وراءه إرثًا معرفيًّا تراكميًّا يحاول من بعده مواصلة الطريق الذي لا نهاية له، وربما رفض الوارثون له فكره جملة وتفصيلًا، وأعظم ما في هذه المحاولات أنهم لن يصلوا إلى جواب عما في نفوسهم دون تدخل الوحي، وانطلاقًا من هذه المسلّمة فإنه مهما كابر المكابرون، وعاند المعاندون، فسيبقى الغيب غيبًا؛ لأن الخالق قدره غيبًا، كما قدر وجودنا هذا وجودًا، ولا جدال أن علم المعرفة البشري يتطور مع الزمان، ويبتكر الإنسان، ويكتشف في حدود مداركه المحدودة، ولكنه لن يعلم من هذا الغيب شيئًا، ولو فتحت له جميع آفاق العلم الدنيوي.

إن استحالة اختراق الحاجز الغيبي من البشر هو الذي أوجد عند المؤمنين عظمة الطمأنينة لا الخوف، وبلسم اليقين لا الشك، وطعم لذة الإيمان لا غمة الكفر والجحود، وحسم هذا الأمر بالتسليم النهائي والإقرار بالعجز أمام الحقيقة الكبرى، إنه التموضع الصحيح لك أيها الإنسان، أن تبقى حيث أنت في موقعك الطبيعي المتوازن من سلم الوجود الذي يحلم بعض المغامرين بالهيمنة عليه وهم أصلًا جزء صغير جدًّا منه، يقول أينشتاين[1]: «إن أجمل هزة نفسية تشعر بها، هي تلك الهزة التي تغشانا، عندما نقف على عتبة الخفاء من باب الغيب، إنها النواة لمعرفة الحق في كل فن وكل علم، وإنه لميت ذلك الذي يكون غريبًا عن هذا الشعور، فيعيش مستغلقًا بالرعب من غير أن تجد روعة

(١) ألبرت أينشتاين Alber Einstein (١٨٧٩- ١٩٥٥م) الموافق (١٢٩٦- ١٣٧٤هـ) فيزيائي أمريكي من أصل ألماني يُعدّ من أعظم العبقريات في التاريخ وممن أحدث في العلوم ثورة لا تزال جارية ابتكر النظرية النسبية عام ١٩١٤م (معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص١٣) ولم يكن ملحدًا يومًا من الأيام بل وصف نفسه بالفيزيائي المؤمن في رسالة العزاء الشهيرة التي بعثها إلى عائلة رفيقه ميشيل بيسو: (كهنة الإلحاد الجديد، هيثم طلعت سرور، ص٧٢).

التعجب إلى نفسه سبيلًا»[1]، ويقول مؤكدًا أن من يقف على تلك العتبة سيكون أعظم معظم للعظيم ﷻ: «ما من عالم عبقري ينفذ إلى أسرار الحكمة والنظام في الخلق إلا ويكون إيمانه بالله عظيمًا»[2]، ويؤكد في موضع آخر أنه على الإنسان أن يكون متواضعًا، ويعرف حجمه في هذا الوجود، ويقف عنده: «من يفهم الطبيعة يعرف الإله، ليس لأن الطبيعة هي الإله، ولكن لأن ما في الطبيعة من قوانين يشير إلى عقل جبار يقف وراءها، وعلى عقل الإنسان أن يكون شديد التواضع أمام عظمة هذا الإله وحكمته»[3].

وكان أينشتاين مع بروزه وشهرته العلمية يحمل حسًّا فطريًّا يصاحبه في كل لحظة من حياته، فقد كان يغضب إذا وصف بالإلحاد، وفي العصر الراهن يستميت بعض المتعطشين لترويج الإلحاد، مثل الملحد البيلوجي ريشتارد داوكنز[4] في وضع (أينشتاين) في قائمة العلماء الملحدين تلبيسًا وتضليلًا لعامة الناس، وهذا خلاف الواقع تمامًا، واستقواء الملحدين ببعض مشاهير العالم لا يغير من الواقع شيئًا، فالمؤمنون بوجود الله يدركون أن هذا الإيمان علاقة عمودية قائمة بين الخالق الأعلى والمخلوق الأدنى، وليست أفقية بين الخلق المتساوين، ولكن ذكر نفي إلحاد المشاهير هو نوع من التنزل في الجدال من أجل حسم كل ما من شأنه التشويش على النفوس البريئة، فليس (أينشتاين) وحده من وقف على حد قدرة الإنسان، واستسلم لها معظمًا من يقدر على ما بعد ذلك، فهناك علماء آخرون توصلوا إلى النتيجة نفسها، ومنهم عالم الاقتصاد الشهير

---

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر (مفتي طرابلس ولبنان الشمالي) طرابلس، لبنان، ص٣٥٨.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٥٨.

(٣) رحلة عقل، عمرو شريف، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، مكتبة الشروق الدولية، ص٨٦.

(٤) ريتشارد داوكينز Richard Dawkins عالم بيلوجي بريطاني معاصر ولد عام ١٩٤١م من أشهر كتبه (الجين الأناني) و(أكذوبة الإله) الذي نشره عام ٢٠٠٦ أنكر فيه وجود أي قوى ينكر أي غيبيات ويعدّ الإيمان ضلالًا وأوهامًا عمل أستاذًا في جامعة أكسفورد مكابر عنيد يستميت بحشد العلماء إلى فسطاط الإلحاد حتى لو كانوا مؤمنين يصر على أن أينشتاين كان ملحدًا ولما عجز عن مواجهة من ساقوا أقواله في الإيمان أقر بأنه مؤمن ولكن بوحدة الوجود: (رحلة عقل، عمرو شريف، ص٤٠).

(آدم سميث)[1] الذي قال عندما أراد المبالغة في مدح صديقه (ديفد هيوم)[2] الذي كان تاجرًا وقانونيًّا ودبلوماسيًّا وأمين مكتبة ومن رواد الفلسفة التجريبية: (إن هيوم قد يكون بلغ في مقاربته تمام الحكمة والعقل أقصى ما تستطيعه الطبيعة البشرية الضعيفة!)[3] إقرارًا منه بوجود حد للعقل البشري لا يمكن تجاوزه بحال.

رهبة الغيب عظيمة عند المتفكرين، ولا يمكن للإنسان أن ينفك عنها إلا بالإيمان والتسليم المطلق لمن يعلمه، والوقوف المتأمل بعمق عند التساؤلات الغيبية لا يهدف إلى النقل من الكفر إلى الإيمان فحسب، بل هو أيضًا ضروري للتذكير بنعمة الإيمان الذي عادة ما نعيش قلقين عليه، فأنت أيها المفكر المتفكر المتأمل، بحمد الله مؤمن، حتى إن غشيتك وحشة من نوع ما؛ لأنك بصورة أو بأخرى تعيش الإيمان (الموجود) وتخشى عليه، ولكن قد تكون ضحية تضخيم غير مسبوق لمظاهر إلحاد مبالغ في وصفها، ومنفوخة أمام ناظريك، كما ينفخ البالون الصغير بالهواء الفارغ، تولى كبرها قوم يريدون أن يشعروك بأن ثمة (طوفانًا إلحاديًّا) يغشى الناس متجهًا نحوك كالطاعون، يوشك أن يلتهمك على حين غفلة من أمرك، وأنه لا طاقة لك به، فيجعلك تعيش أوهام يأس وإحباط يكاد يضيع معها إيمانك، وتنسى ربك الرؤوف الرحيم بك، الذي يعدك بهذا الوعد المطمئن جدًّا على الرغم من كل ما يمكن أن يمر بك من أعاصير فكرية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

شتان بين هذه الحقيقة الإيمانية المطمئنة من المعلوم وبين التجديف المخيف حول الوجود من المجهول، فأنت في الواقع تنعم بيقينك الكامن وإيمانك الصادق لمجرد تتبعك لمثل موضوع هذا الكتاب متعطشًا إلى مادته، وذلك لوجود (دافع) من نوع

---

(١) آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ - ١٧٩٠م) الموافق (١١٣٥-١٢٠٤هـ) الأستاذ بجامعة جلاسكو من أشهر كتبه (الاقتصاد السياسي) الذي هو بمنزلة المرجع الأول لفكرة الرأسمالية بفرضه علم الاقتصاد السياسي: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص١٥٩).

(٢) ديفيد هيوم David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦م) الموافق (١١٢٣ - ١١٩٠هـ) فيلسوف ومؤرخ إنجليزي ذو نزعة حسية ولد في أدنبرة أسكتلندا يرى أن جميع إدراكات العقل البشري ترجع إلى إحساسين متميزين هما: الانطباعات والأفكار: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٦١١).

(٣) الفلسفة ببساطة، براندن ولسون، ترجمة: آصف ناصر، دار الساقي، الطبعة الثانية، ٢٠١٠، ص٢٥.

خاص يدفعك لقراءته، وظاهرة الإلحاد المضخمة قد لا يبقى منها إلا شيء قليل جدًّا عند الفحص والتحليل، فهي أقرب إلى المكابرة والصدود من كونها قناعات معرفية راسخة، ونتحدى كل من يدعي الإلحاد عبر التاريخ ألا يكون في نفسه شيء (ما) من بقايا الوخز الإيماني الكامن في فطرته، يلدغه بين الحين والآخر منبهًا، ويدور بداخله كالإعصار على الرغم من أنفه، يقول المفكر الإسلامي (علي عزت بيغوفيتش)[1]: "إن الإنسان الذي يهيمن عليه النموذج المادي أو الإلحادي لا يمكن أن يكون ماديًّا ملحدًا تمامًا، ولو أراد ذلك من أعماق قلبه، وأن ماركس على الرغم من أنه ملحد، لكنه على حد قول (براند رسل): يبشر بأمل كوني لا يمكن تبريره إلا إذا كان صاحبه من المؤمنين بالألوهية)[2].

لا بد من الاعتراف بأننا أمام إيمان فطري صامت يأخذ مكانه في قلب كل من يطلع على مثل هذه الحقائق مهما كابر بالتصريح بإلحاده، لقد أوجد الخالق جذور هذا الإيمان فطريًّا كما أوجدك في هذا الوجود: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، فوجود جذور هذا الإيمان في كل قلب هو بمنزلة وجود الإنسان ونطقه في هذا الوجود، إنه بمنزلة وجود كل عضو من أعضائنا، وضروري بل أكثر ضرورة من أي عضو في الجسم، أما الكفر على علم وبصيرة فظاهرة نكران قبيحة معروفة أسبابها ودوافعها، ولقد وصف الله حال هؤلاء بقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ولأنهم لا يبحثون عن حق، فكل جدل ينتج عن تساؤلاتهم لا بد أن يكون بهدف إشباع غريزة الجدال والخصومة فقط، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

*****

(١) علي عزت بيغوفيتش Aliya izzetbegoviç (١٩٢٥ - ٢٠٠٣م) الموافق (١٣٤٣ - ١٤٢٤هـ) مفكر وقانوني وأديب ومصلح سياسي له اهتمامات دعوية سجن بسببها خمس سنوات أصبح رئيسًا للبوسنة عام ١٩٩٠م وأعيد انتخابه دورة ثانية عام ١٩٩٦م ومن أشهر مولفاته كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب).

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش، ترجمة: محمد عدس، تقديم: عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠١٤م، ص١١.

الصمت البليغ

يصبح الصمت أحيانًا أشد بلاغة من النطق، وما من مخلوق إلا ويصمت عن أشياء يعتقدها، ولكنه لا يملك إخفاءها، إذ تنفلت منه على شكل قرائن تدل عليها كلما طرح الأمر للنقاش، تلمس ذلك من طريقة إنصات المرء وتفاعله مع الخطاب المطروح، أيًّا كان وضعه، وإرواء هذا العطش الفكري بنور الوحي المدرار هو ما نأمل أن نصل إليه في نهاية هذه الرحلة الفكرية، إننا لم نخترع أمرًا جديدًا عليك، فأنت قبل هذا كله مهتدٍ بفضل ربك، ثم بفضل فطرتك الأصيلة، وهنا يحمد لك هذا الأدب مع ربك وأنت تعيش هذا الحراك الداخلي والقلق المرير بحثًا عن اليقين بل ومواصلًا البحث عنه، أنت بأدبك هذا مع الله لا تشتكي علانية، ولا تبوح بكل أسرارك، ولا تنطق بأفكارك الثقيلة، خشية وحياءً وتعظيمًا لمن هو أهل لذلك ﷻ، تفعل هذا مع يقينك من داخل نفسك أن أمرك مكشوف له، وأنه لا تخفى عليه خافية مما أخفيته أنت عن الناس، ومع هذا تجد الأنس معه برحمته ومغفرته وستره وغناه، ولا تجد ذلك عند الناس الذين تحرص كل الحرص ألا يعلموا شيئًا مما يدور في نفسك.

فما الذي يدفعك إلى ذلك إن لم يكن هو محض الإيمان السري بينك وبين الله؟! والله إنه هو الإيمان عينه، فأنت تؤمن بالله، وتحب الله حبًّا خالصًا؛ لأنه صاحب فضل مطلق عليك، يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: «إذا ارتكبت في حق الله تسعًا وتسعين خطيئة وحسنة واحدة، ذكر وقَبِل حسنتك، وضاعفها لك، وستر، وغفر لك خطيئاتك التسعة والتسعين، وقلبها لك حسنات إذا استغفرته، والناس لو علموا عنك تسعًا وتسعين حسنة تجاهلوها، وتحدثوا عن خطيئتك الواحدة، ولم يغفروها بحال)، إنه ربنا الرحمن الرحيم وكفى، إنها صفة الرحمة للرب التي جعلت موسى يختارها في خطابه تشويقًا لقومه، وهو يدعوهم إليه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠].

أما لماذا تصبح الحياة هكذا؟ فلأنها دار الابتلاء والصبر، ونحن لا خيار لنا فيها سوى أن نمضي صابرين منتظرين عهد الخالق ووعده لنا: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، بالفوز العظيم بالسعادة والنعيم والخلود من بعد هذه الحياة، ومن

الابتلاء هو ما ترى، وما نتحدث عنه الآن، فليس في الدنيا طمأنينة كاملة، ولا أمان مطلق، بل سيكون ذلك كله مدخرًا للمؤمنين بالغيب يوم القيامة وفاءً لهم على صبرهم وجزاءً لإيمانهم عندما ابتلاهم الله بذلك، وأي طمأنينة في الدنيا بما فيها طمأنينة الإيمان لا بد أن يشوبها شيء من القلق الضروري لإبقاء جهاز المناعة فعالًا ضد المفاجآت الفكرية؛ كي يتصدى للشبهات القادمة إليها، إذ لا تعارض بينها وبين القلق الإيجابي عليها من أجل الحفاظ على الإيمان المغروس بعمق في وجدان العبد الخائف عليه، ولا بد من الإقرار بهذه النعمة المسبغة علينا، التي غالبًا ما يتراءى لبعضنا أنها نقمة مخيفة، بل هي نعمة (الوجل) الذي جعله القرآن سببًا لفوز المؤمنين بشهادة الله أنهم بذلك يسارعون في الخيرات، وأنهم لها سابقون، وذلك عندما يكون الوجل لتقصير في العبادات التي كان بمقدروهم الزيادة منهم، فكيف والأمر يخص الإيمان ووجل المؤمن عليه أشد من وجله على أعمال العبادات المتفرعة عنه وكلا الحالين وجل حميد يصبح محلًّا لثناء الله على عباده: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

انظر كيف يبشرك القرآن الكريم بأن هذا القلق منك إنما هو خير لك، لمجرد أنك تجاهد نفسك هذا الجهاد الصارم لإبقائه في دوائر اليقين مع هذا الصمت المبين، فأنت في اللاشعور تعظم خالقك، وتؤمن به، وتخشى أن تقابله بغير إيمان، إذ لو كنت أمام أمر يسير من أمور حياتك لثرثرت به في كل مناسبة غير مبالٍ بتبعاته، ولجدفت به يمينًا ويسارًا مع الناس، ثم أدرجته في عالم النسيان إلى الأبد دون اكتراث، لكنك تدرك بعقلك الباطني وأنت متترس بالصمت الحكيم ألا تهاون ولا استعجال ولا تلفظ حول شأن أمر فطري قد استقر، واستكن في سويداء القلوب، والغريب أنك آمنٌ وأنت تؤمن بأن ربك الرحمن يعلم هذا كله، فتدرك عظيم امتنانه أن تجاوز عما حدثت به نفسك ما لم تقل أو تفعل، كل ذلك يتم من خلال ما يبدو لك أنها أحمال فكرية ثقال تحملها معك في يقظتك ومنامك وحدك، وتحرص ألا تبوح بها، بينما هي كل شيء يهمك في وجودك في حياتك وبعد مماتك، وهذه النواميس المكبوتة بالنفس هي من خبر النبأ العظيم الذي اختلف فيه الأولون والآخرون، وسيبقون مختلفين فيه، ولن يصلوا إلى الإجابة المُنهية

لهذا الإشكال أبدًا إلا حين يلقى الناس ربهم، فينبئهم: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣] أما في الدنيا فلا مناص ولا مفر من الأخذ بالوحي بقوة؛ لكونه مفتاحًا لأسرار الوجود ومآلاته.

كأني بك مستغربًا تسلل موضوع هذا الكتاب إلى تلك الزاوية السرية الحرجة من أقصى عالمنا السري المكبوت، والتي نختبىء فيها مع أنفسنا لمناجاتها سرًا ونحن قلقون على إيماننا بصمت! اسمح لهذا السجال المباشر أن يكسر ذلك الصمت المريب بينكما، وكن واثقًا من أن النتيجة ستكون دائمًا سيادة الحق واليقين وسيرتفع صوت من الداخل ناطقًا بالحق شامخًا على منصة الجدال بينكما، مشيرًا إلى طريق الأمان الكامن لديك ومعالجًا لتلك الوحشة الصامتة والقلق الدفين الذي تكتوي بحرارته القلوب المؤمنة لمجرد اقترابها من منطقة الخطر فتنفر منه وتضطرب خوفًا بفطرتها السليمة وإيمانها العميق على يقينٍ حقيقي مستقر تحب أن تلقى الله به.

ستجد همس صوت الحق ملازمًا لك في كل موقعة جدلية سرية كانت أم علنية، يحيط بك ويربت على صدرك الوجل وقلبك الخافق، ويأخذ بيدك أخذًا كله رأفة ورحمة ليقول لك بكل ثقة: إنك مؤمن فلا تقلق ولا تيأس، أنت طبيعي بما يحدث معك من تطلعات معرفية لمعرفة المجهول والمستقبل طالما أنك لست بعيدًا عن الفطرة والوحي، أنت سوي بما تعتقده وتديره من أفكار مدافعًا عن إيمانك، أنت متوازن في محيطك الكوني حين تسأل وتتساءل، لكنك تشعر وكأنك تخوض هذا الغمار منفردًا، يتراءى لك وكأنك وحدك في تيه وشتات، وأنك وحدك غارق في الغموض والحيرة، أنت لست وحدك أبدًا، كما أنك لست في تيه ولا شتات، والواقع أن لديك ما يبرر هذا الشعور الظاهري وأنت بين ما سطره فلاسفة من قبلك، أغرقوا في الماديات والتحاكم إلى العقل المجرد، انتقلوا به إلى فوق المحسوسات ففشلوا في معرفة ما وراءها، فنقلوك معهم في مركبهم من حيرة إلى أخرى، وبين آراء علماء الأديان السابقين على الإسلام المقصرين عن الإجابة الشافية الكافية، خاصة من أفرغوا الوحي من مضمونه، وحاربوا العلم، وجعلوا من الدين وسيلة تسلط وجباية واستعباد وإقطاع، وصوروا الخالق بصفات من عندهم لا تليق بجلاله سبحانه ولا يستنكر معها على العقل السليم أن ينكره ويكفر

بتلك الصفات المزعومة، وألا يقبل بعض تلك التشريعات المتسلطة المنسوبة إلى الله وهو منها براء.

العقل السليم يميز بقوة بين (الإله) الحق الذي يستحق الإيمان به وعبادته، والآخر الباطل الذي يستحق الكفر به ومعصيته، عندما اتخذت قريش إلهًا تعبده غير مستحق للعبادة، لم يكتسب القداسة لمجرد أنهم عبدوه بل جاء الوحي نابذًا له بكل قوة: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢] فالكافر بإله تصفه الأديان بصفات مخجلة لاتليق بالله، هو في الحقيقة ليس كفرًا بالدين الحق، وإنما هو الاتباع الصحيح لسنة إبراهيم عليه السلام من قبل عندما أنكر وتبرأ وكفر بما يعبد قومه من دون الله حتى وإن قدسوه وسموه إلهًا: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

*****

حيطةٌ أنتجت حيرة!

لم يتوقف الأمر عند أهل الكتاب، بل تجاوزه حتى أصاب بعض المسلمين ممن خافوا على إيمانهم فبالغوا في الحيطة والحذر حتى حذروا من بعض الحق نفسه وهو وسيلة الوصول إلى الحق المنشود، فأقفلوا الأبواب على العقل خوفًا على الإيمان، واعتقدوا أن النجاة تكمن في إبعاد تفكيرك عن نفسك وعزلك عنه، عبثًا من عند أنفسهم بأن هذا هو الحل وهذا محال فطريًا، والحقيقة أن أكثرهم إن لم نقل كلهم أحوج منك إلى ما أنت تبحث عنه الآن من وضوح واستيضاح! وليسوا أفضل من الرسل! لكنهم آثروا السلامة يوم أن وجدوا في الصمت المحتقن والستر الوهمي سلامة مؤقتة، فما أن تقترب من الحديث عن هذا الأمر الجلل إلا وتجد الواحد منهم يسارع بنهيك عن التفكر مطلقًا، ويقف هنا ويأمرك بالتوقف أيضًا حيث اختار هو أن يقف، لا حيث يجب أن تقف، ولو أنك واصلت في الاستبيان والبيان واثقًا مما عندك لربما سببت له مأزقًا فكريًا خطيرًا لم يكن مهيأ له، ولهذا تجده يبادر إلى زجرك ودعوتك للتوبة النصوح!

متكئًا على ما تخفيه في عقلك الباطني من تعظيم معلن وغير معلن لله، وتقدير للدين يجعلك تستقبل كلامه وكأنه جزء من الدين أيضًا فتمتثل لأمره مجاملًا لا مقتنعًا، بينما هو يسكتك لتحتقن بأفكارك وحدك، ويرى أنه بذلك يطبق عليك توجيه النبي ﷺ (فلينته)، متجاهلًا فوارق الزمان والمكان واختلاف البيئة الفكرية عند تفسير النصوص وتطبيقها وتحقيق مناط الأحكام في عالم الواقع، قطعًا سننتهي جميعًا حيث أمرنا الرسول ﷺ دون اعتراض على النص النبوي أو تعطيل له فهو لا ينطق عن الهوى وما قاله في عهده صالح لنا ولمن بعدنا ولكننا نتفاوت في فهمه وتفسيره وتحديد نقطة الإنتهاء، فقد أصدر أمره للتوقف عند نقطة محددة، وهي أن يستطرد الإنسان في التساؤلات إلى أن يقول: «من خلق الله؟» هنا يجب أن ننتهي ليس حرمانًا للعقل من شيء ممكن، ولكن لأنه لا يمكن لأي عقل أن يجد جوابًا عن هذا السؤال، واحتياطًا من الوسوسة أمرنا بالانتهاء هنا وليس في أي نقطة تأمل وتفكير قبلها، فيجب أخذ النصوص مجتمعة دون تعارض، ويجب مراعاة تحقيق إمكانية تطبيق مناط الاستدلال والحكم، ولو كان النبي ﷺ بين ظهرانينا اليوم لوجدنا من توجيهه ورحمته بأمته ما لم نجده ممن يقسون عليها مستندين إلى أقواله التي لم تقفل الأبواب على العقول، ولم تحجر واسعًا من المنقول، فلم يكن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه معطلًا للنصوص عندما توقف عن تطبيق حد السرقة الوارد بنص محكم في القرآن في عام الرمادة[1] عندما بلغ الجوع من الناس ملبغًا أكلوا بسببه كل شيء، استحضر فيه الخليفة العادل رحمة الله ورحمة رسوله بالمؤمنين، وفرّق بين حاجة الناس الضرورية وبين عبث السارق وعدوانيته وتعديه على أموال الآمنين.

الالتزام بالنص الثابت ثابت من ثوابت ديننا، فعلينا أن ننتهي عند الأمر بذلك، ولكن علينا أيضًا أن ندرك الفوارق الجوهرية بين عصرنا الراهن بتعقيداته وعصر الصحابة رضي الله عنهم الذين ينتهون إذا اقتربوا من هذه المرحلة من التساؤلات الحساسة؛ لأنهم كانوا يسبحون آمنين في أطيب وأغزر ينابيع الإيمان الصافية في مدينة الإسلام

(١) يُعدّ عام الرمادة أشهر أزمة اقتصادية وقعت في صدر الإسلام وكانت في أواخر عام ١٧هـ وأوائل عام ١٨هـ أصاب المدينة وما جاورها قحط ونقص في المعيشة بسبب قلة الأمطار وسمي عام الرمادة لتتابع الجدب حتى تحولت بقايا النباتات إلى ما يشبه الرماد.

والرسول ﷺ بين ظهرانيهم نور وسراج وأسوة حسية ومعنوية ونفسية وإيمانية حاضرة بينهم، يلوذون به عن كل وحشة تغشاهم، فيربطهم بالله، كانت حياتهم من البساطة بدرجة أنهم لا يعلمون ما وراء البحار من جغرافيا الأرض القريبة منهم، فكيف بعلوم الفلك السحيق والفلسفة والكلام التي تسللت اليوم إلى كل بيت مسلم، ولم يصلهم شيء يذكر من مخاض الفلاسفة اليونان والمنطق وعلم الكلام ممن سبقوهم بمئات السنين، ولم يطلعوا على ما فتح الله به على الإنسان في عصرنا المعلوماتي من علوم وإعلام وشبكة عنكبوتية (Internet) يستحيل على كل من يسبح في بحارها اليوم أن (ينتهي) لمجرد الانتهاء عن التفكير قبل وصوله نقطة النهاية الصحيحة التي يستسلم عندها لله، وهو راضٍ كل الرضا، ومن الخطأ أن يفرض على الإنسان نقطة توقف قبل منتهى النهاية البشرية التي يجب الانتهاء عندها، وهناك ما يحرك سواكنه، ويعصف بأفكاره المحتقنة في ذهنه، التي تزداد مع الوقت ورمًا وتضخمًا، ولربما عفنًا يتبعه هلاك الجسد بأكمله إن لم يتدارك بعلاج ناجع، فيسمح له بالوقوف بنفسه عند نقطة النهاية الحقيقية دون أن يخرج عن إطار الوحي بحال.

وإن تعجب فعجب أن يشارك طالب العلم أو العالم من حيث يدري، أو لا يدري في تكوين هذه الأزمة الفكرية لدى الضحية بتقصيره بواجب البيان، ثم يطالبه بالتوقف عن التفكير، ويترك الضحية وحده في وحشة قاسية تتصارع داخليًّا مع عقله ومع من حوله! كيف يطالب المرء بالتوقف عن التفكير والتساؤل مع إيهام (الضحية) بأنه قد نجا، بينما أنغام الكفر والإلحاد والشكوك تتدفق على مسامعه وتبصرها عيناه صباح مساء مسموعًا ومشاهدًا ومقروءًا؟ الإنصاف يقتضي أن نطلب من الإنسان التوقف والانتهاء احتياطًا، عندما تكون هذه الظاهرة استثناءً محدودًا يصيب أقلية هامشية في مجتمع يفيض إيمانًا ويقينًا في غالبيته، كما كان العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين من بعده، أما في العصر الراهن فلا بد أن يتوقف المرء حيث تنتهي قدرته تمامًا، ليقف بنفسه على العجز البشري أمام عظمة الوجود وأعظم منها عظمة موجده، بحيث لا يتهم أحدًا بأنه حرمه فرصة معرفية ممكنة.

لكن أن تتدفق الشبهات المشوشة على تفكير الأبرياء بهذا الطوفان الكمي الهائل مع ضعف علمي وسياسي واجتماعي في مواجهتها من قبل العلماء فضلًا على عامة

الناس، ففي هذه الحالة لن نترك أنفسنا وبناتنا وأبناءنا الأبرياء المتعطشين لكل حق وحقيقة بصدق أن يدركهم غرق الاضطراب الإيماني في بحر لجي من الشكوك والحيرة مجردين من سلاح الفكر السليم وحصانة الإيمان في مواجهة هذه الأمواج العاتية من الأفكار المتلاطمة، بل المتسللة إلى القلوب كالسم الزعاف ما يُدخلها في أنفاق متشعبة من القلق والخوف والهذيان الداخلي المتفجر والمكبوت بقوة، بينما طوق النجاة قريب منهم، بل هو أقرب إليهم من حبل الوريد، ينتظر منا إشارة الأمان كي يبوح لنا بفيضان من الأسئلة المتكدسة في ذهنه المنسي والمستحيي من خالقه، لسان حاله يريد أن يقول: أدركوني! من أنا؟ كيف وجدت؟ ما مصيري بعد موتي؟ ما حقيقة الرسل والوحي؟ والبعث والنشور والجنة والنار، وفوق ذلك كله (الله) جل شأنه؟

إن المبالغة في الاحتياط وطرح كلمة (انتهِ) وحدها قبل موقعها الطبيعي من سلم الفكر ليست علاجًا مناسبًا في كل الظروف، وعندما نفترض توقف السائل لمجرد قولنا له: (انتهِ) مكتفين بزجره في هذه الأجواء المعقدة وفي منتصف الطريق، فإننا قد تصرفنا بسذاجة وخداع لا نظير لهما؛ لأنه في الحقيقة لم ولن ينتهي أبدًا، حتى إن تظاهر بذلك مجاملًا، فالبيئة حوله تدفعه بقوة ألا يتوقف عن التفكير؛ وذلك لأنه مخلوق (عاقل) تعصف به مستجدات تؤثر مباشرة في العقول، قد يصمت على مضض، ويكبت طوفان براكينه المتفجرة بداخله، ثم يصطدم ببيئة أخرى أصحابها ينطقون بالباطل بكل جرأة دون حدود ولا قيود، والمجتمع قد أسكت (الضحية) بقوة (الأمر النبوي) وجمد تفكيره دون أن يزوده ويغذيه بدفاعات الحق التي يدمغ بها ذلك الباطل، بل إنه قد برمجه على الصمت حتى عند الحاجة للنطق، وبذلك يقحمه عمدًا في ساحة الانتحار الفكري بعد أن كبله عن الإمساك بطوق النجاة منها، لمجرد أن المجتمع ممثلًا بأهل العلم، فهم أمر النبي ﷺ (فلينتهِ) فهمًا ضيقًا، فبالغ في سد باب هذه الذريعة احتياطًا منه، وقد خفي عليهم أن هذا الذي يتلمس حبائل الحق قلقًا على يقينه بالحقيقة المنشودة جادًّا في سعيه للوصول إليها بصدق، قد يكون خيرًا ممن أسكته، وزجره، وتولى عنه دون بيان ممن يحسب أنه يحسن بذلك صنعًا.

*****

الطريق إلى الحقيقة

قضية فهم الوجود ومآلاته لا يمكن شرحها بمجرد تكرار الكتابة على صفحات الكتب ولا بتنميق العبارات البلاغية بالخطب والمواعظ، فهناك فرق بين التأليف التقليدي من بحث ونثر وقصة وشعر ورواية كما هي عادة غالبية المؤلفين، وبين تتبع عصارة فكر الإنسان المتناثر في صفحات التاريخ عن أهم أسرار الوجود قديمًا وحديثًا، والتنقل بين الحضارات والقارات والزمكان (الزمان والمكان)، ما يفرض على الباحث في هذا الأمر تقديم جهد استثنائي متميز، وعرض جديد للقضية، يجذب القارئ نحوها لإحساسه بالجديد والتجديد والجدية، وملامسة الأزمة مباشرة، ولهذا تجد كل من يكتب عن هذا الموضوع يستهل كتابه بأن هذا زبدة جهد طويل وعصارة فكر متواصل في التاريخ والمنطق والفلسفة والأديان، وفي هذا الكتاب استوجب الأمر تتبع وتحري المصادر التي احتاجت إلى عقود من الزمن للإحاطة بالحد الأدنى منها، لمعرفة أهم محطات الفكر والفلسفة البشرية، ابتداءً من أولى مراحل تدوين الفلسفة قبل ما يقارب ٦٠٠ قبل الميلاد وإلى يومنا هذا، لتتبع مسار الفكر الإنساني حيال محاولة فهم هذا الأمر مثار الجدل قديمًا وحديثًا بجميع ملابساته ما أمكن ذلك، ومعرفة توقيت وكيفية دخول فلاسفة المسلمين على الخط، وهل كانوا في حاجة إلى ذلك من أجل علاج ما عندهم أم كان مجرد محاكاة غموض غيرهم ومخاطبتهم بلغتهم، وكيف أثَّروا أو تأثروا بذلك، مع تسليط الضوء على إدراك جمال الوحي المسعف للبشرية عبر التاريخ والمنقذ لها من كل مأزق معرفي عن عالم الغيب الذي لا تطمئن النفوس، ولا تتوازن النفسيات إلا بالإيمان به.

لقد كان هذا هو الهدف الأساسي من نشر هذا الجهد الذي لم يكن توجيهًا ولا إرشادًا لك - أيها القارئ الكريم - ولم يكن اتهامًا ولا تشكيكًا في إيمانك، ولكنه من أجل إدخال مزيد من الأنس على قلبك المؤمن أصلًا مهما تغشّاك من قلق طبيعي عابر، انطلاقًا من إخلاص المحب المشفق الذي يريد مشاركتك الهم والأنس نفسه، الأخ الذي يريد أن يستأنس بك كما تستأنس به، ويفرح بإيمانك كما تفرح بإيمانه، يريد أن يختصر عليك طريقًا طويلًا من البحث والتحري المضني الذي تكرر مع الآلاف ممن سبقونا،

وسلكه العالم والمتعلم والفيلسوف والمفكر والفقيه والأديب، وكلهم انتهوا إلى النهاية نفسها التي سأبدأ بها معك هنا ولن أنتهي بغيرها، ولن ينتهي من بعدنا إلا بها أيضًا وهذا التحدي قائم إلى الأبد؛ لأننا في هذا الوجود عاجزون ولسنا بمعجزين: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

إنني معك في المركب نفسه، سأنعم وستنعم - بإذن الله - بالسعادة والطمأنينة في الحياة الأولى وفي الآخرة، وستصل إليها بسهولة ويسر ما دمت تقرأ صادقًا متجردًا في تحري الحق بقدر المستطاع، بعد أن تسمو بنفسك فوق تعقيدات هذه الحياة الفانية التي غالبًا ما تحول بينك وبين الوصول إلى الحقيقة، ليكن الحق ضالتك التي تبحث عنها بغض النظر عن مصادره، فلا تنشغل عن جوهر الموضوع الوجودي بأشياء هامشية، كشكل الكتاب، وسيرة مؤلفه، وتوقيت نشره، وموقع ناشره، ولا ما في النفوس من ضغائن وأشياء صغيرة، عادة ما تصبح عقبة أمام فهم هذا الأمر الجلل، فتحول بينك وبين تلقي الفائدة المرجوة منه بتوفيق الله، فالأمر أكبر من ذلك بكثير، والحق ضالة المؤمن، ولا يلام في البحث عنه في كل مكان، وقد قبله نبي من هدهد[1]، وأقره سيد البشر من شيطان[2]، إنه الحق المبين الذي يبحث عنه كل صادق أمين، ثم تذكر أنك أمام حياة مليئة بالغرائب والمفاجآت التي توجب عليك اللجوء إلى الإيمان وترتيب أولوياتك في حياتك عاجلًا، فلا تترك المهم، ولكن لا يشغلك عن الأهم، ولتعلم أن الدنيا وجميع مشكلاتها حطام زائل سوف تتركه وراءك عند الموت، فتدخل بروحك عالمًا جديدًا أنت اليوم في أمسّ الحاجة إلى شحن الزاد والاستعداد للرحيل إليه، ومعرفة ما يطمئنك فيه.

*****

(١) إشارة إلى قول سليمان عليه السلام: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨] بعد أن قال له الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

(٢) إشارة إلى قول النبي ﷺ لأبي هريرة في الحديث الذي رواه البخاري (٢٣١١): «أما إنه قد صدقك وهو كذوب.. تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟ قال: لا قال: ذاك شيطان».